القصص

قصة مصرية

قبلة ....

[الحوار في هذه القصة المصرية موضوع في الأصل باللهجة المصرية وقد عرب لانتشار الرسالة في الأقطار العربية]

للأستاذ دريني خشبة

كانت شغله الشاغل !

كانت تملأ أحلامه، وتحتل كل حنية من قلبه، وكان له قبلها حبيبات كثيرات من حبيبات الضرورة اللائي يعرضن في حياة الشبان، ثم ما يلبثن أن ينطفئن كما تلتمع الشهب وتتلألأ، ثم ما تلبث أن تنطفئ، ويكون أحدها صاعقة تنقض على أحد فتسحقه ... فلما عرفها، نسى هواه القديم الوزع، ووهبها حبه وإخلاصه ودموعه ودمه ... ولو استطاع لوهبها كل حبه الذي ضيعه على الحسان عبثاً من قبل

وكان لها هي الأخرى أحباء ... ثلاثة أو أربعة ... تتنقل بينهم كالفراشة الظامئة تمتص من كل زهرة رحيقها، ثم تلتمس الزهرة الثانية والثالثة ... والرابعة التي تكون أطيب شذى، وأنضر منظرا، وأملأ بالعصير الحلو. ثم عرفت (جمال) فشعرت كأن حاجزا ضخما قويا يفصلها من الماضي المتلئ بمتاعب الحب المصطنع، والهوى المزوق، والغرام الكاذب الخداع. وشعرت لأول مرة في حياتها بنسيم عليل يهب في صحرائها المتلظية فيجعلها جنة تصدح فيها البلابل، ويتبسم في أفنانها الورد، وترقص في حنيّاتها الملائكة ... وتنشد وتغني !

وكانت تهب من نومها فلا تفكر إلا في (جمال)، وتذهب من هذه الغرفة إلى تلك وشخصه ماثل ملء ناظريها، وحبه يغمر نفسها، وكان يتمثل لها أكثر كلما توجهت إلى الحديقة تقطف الزهر وتأنس إلى الطير، وتجلس عند حافة الغدير، وترسل نظراتها الحائرة المضطربة في الشمس الغاربة خلف النخيل البعيد ... وطالما كانت تستسلم لوحدتها هذه فترسل عَبرة صغيرة، صغيرة جدا، تخفيها في منديل حريري صغير، لم تكن حقته قبل أن تعرف (جمال)

وكان (جمال) بدوره يحبها ويفكر فيها، ولكنه كان فتى غيوراً من مصر، وكل فتيان مصر غُيُرٌ أشداء في الغَيرة، وهو كان يعرف أن (سُمَيّة) لم تكن له قبل أن يلقاها وتلقاه، بل هو كان يعرف اثنين أو ثلاثة من أحبائها المدنفين بها، بل إن اثنين أو ثلاثة من أحبائها كانوا أصدقاءه، وكانوا يُسِرون اليه، كل على حدة، بلواعج الحب الذي يعانون من (سمية)؛ وكانوا يشكون إليه دلالها وقلة اكتراثها بهم، فلم يتحدث اليه أحدهم عن (سمية) حديث سوء أو فحش، ولم يقل له أحدهم إنه نال من (سمية) خلوة نبثها غرامه، أو إنها حفلت به حين لقيها في الطريق فجزته عن ابتسام بابتسام، بل هم جميعاً كانوا في نصب من تمنعها الذي شف قلوبهم، وأضوى أجسامهم، وجعلهم في حيرة من أمرها

على أن (سمية)، مع ذلك، كان لها أحباء تخلو إليهم قبل أن تعرف (جمال)، وكانت تعاطيهم من بضاعة الحب المزجاة قبلاً رخيصةً، غير حارة ولا وفية، ولا معنى فيها من هذه المعاني الرفيعة التي تصون الحب العذري، ويتجمل بسموها الهوى الطهري؛ وكانت تسرف أحياناً فتغشى المراقص والندى وكانت تضع فتحسو الخمر وتقبل الكؤوس، وكانت، من النشوة وجنون الشباب، تراقص الفتيان نصف عارية؛ وكان جسمها الجميل المشوق، ونهدها البارز المتأجج، ووجهها المستدير الحلو، وخداها الموردان الأسيلان، وأنفها الدقيق، وفمها الرقيق وذراعاها الناعمان ... كان كل أولئك يجذب إليها قلوب الشباب

المستهتر ، وكانت قلوب الشباب المستهتر من حولها كالفراش حول اللهب ، تنقذف فيه لتحترق !

وقد عرفها جمال هنا ! في نفس المرقص الذي تعودت أن تنشاه أكثر من المراقص الأخرى . وقد قدمها إليه أحد أصدقائه المقنَّع الأغنياء على أنها غانية ، ولكن جمالاً عرف فيها الفتاة العذراء بقلبها ، النقية بسريرتها ، المتبرمة بهذه الحياة التي مظهرها دنس وفجور وفسق ، وباطنها ضمير معذب وقلب محترق ونفس شقية ، ودموع مُكتّمة وأمل مفقود . لقد كانت الأضواء المصنوعة البرتقالية والبنفسجية والصفراء والحمراء والبيضاء ، تتكسر على ظهرها الأملس وصدرها المرمري ، وساقيها الخدلجين ، فتزيد بمعاني الفسوق فيها في قلوب محبيها الذين لم يكونوا يعرفون منها إلا ما تعرفه شهواتهم وخيالاتهم ، في حين كانت هذه الأضواء نفسها تضاعف معاني الطهر والبراءة فيها في نفس جمال . ولذلك ضغط على يدها الصغيرة الحلوة الناعمة ضغطاً هيناً ليناً حينما قدمها إليه صديقه ... وكان لقاء هو أول الطهر في حياة هذه الغانية ، وهو أول الأمل المشرق والرجاء البسام

لقد ضغط جمال على يد سمية ضغطة نقلت الى قلبها الواسع ما في قلبه النحيل من حب ناشئ ، تذوقته فلم تعرف فيه تلك النجاسة التي عرفتها من أحبائها الآخرين ، وحدثت نفسها فوجدتها تنتقل فجأة من هذه الأرض المملوءة بالأدران ، إلى سماء فسيحة أثيرية مملوءة بالأناشيد والأماني

وفكر فيها جمال ، وكاد عقله يصدفه عنها ولكن قلبه جذبه إليها بشدة وعنف ، فاستسلم كالحمل ، وألقى بروحه كلها في قبضة سمية

* * *

والتقيا في خلوة ، بعد مقدمات غرامية طويلة كلها حيطة وكلها حذر ، وجلسا في منزل جمال الخالي من كل مخلوق عداه ، وذهبا يتجاذبان أطراف الحديث الحي ... ثم صمتا فجأة وتوسطت بينهما نظرات مستطيلة غائرة مملوءة مغناطيسياً عجيباً ... ولم يقو جمال على هذا السحر المنبعث من عيني سمية ، فأطرق برأسه ، وأخذ فوديه بين يديه ، وانفجر يبكي كالطفل ، وسمية تتفرس فيه وتتألم ... ولا تدري ما ذا تصنع !

سمية التي خبرت من ألوان الحب ألفاً وألفاً ، لم تر في حياتها مثل هذا المشهد العجيب مرة واحدة ، لأن كل الذين اكتووا بنارها كانوا من طلاب جسمها الخصب ، وجمالها الفتان ، أما جمال ، فقد عرف من ابتساماتها الحزينة ، ونظراتها المترعة بالمعاني أنها جديرة بغير هذا اللون من الحب الشهوي الدنس ، جديرة بحب جديد نقي يوائم هذه الناحية المستورة العميقة من نواحي نفسها الكريمة الرحيمة الناقمة على الحياة ، الباحثة عن قلب واحد كريم من ملايين القلوب التي يزدحم بها العالم من حولها

دهشت سمية ، وجلست تلقاءه مسبوهة اللب ذاهلة القلب ، لا تدري ما ذا تقول ، ولا كيف تعالج منه هذا البكاء وذلك النحيب . . . لقد كانت تظن أنه يستطيع أن ينال منها كل ما يشتهي ، فانهما بنجوة من الناس ، ولا أحد يستطيع أن ينفذ إليهما ولو بنظرة . . . فلم لم يداعبها جمال ؟ ولم لم يداعب كفيها على الأقل ؟ لمَ لمْ يجلس الى جانبها على هذا الكرسي الرحيب فيضع رأسه على صدرها كما يضع العشاق ، أو يأخذ رأسها فيضمه على صدره ، ثم يبحث بفمه في شعرها المجعد الأسود الفاحم ! لماذا لم يحاول أن يُقبّلها ؟ إن القبلة هي عربون الحب كما يقولون ! فلم لا ينقض جمال على فمها الحلو فيسقي من سلافته قلبه الظامئ ؟ لا ! لم يفعل ، ولم يحاول أن يفعل ... بل ظل يبكي كالطفل ... بكاء ساكناً هادئاً ، لأنه صادر من القلب ، بل من أعمق أغوار الروح . . .

— « أ ... أظن يحسبك ما بكيت يا جمال ؟

— « ... ؟ ...

— « أهذه أول مرة إذن ؟ ...

— « سمية ...

— « جمال ...

— « أتعطيني موثقاً يا سمية ؟

— « وعلى أي شيء أقاسمك يا جمال ؟

— « على أن تكوني لي وحدي يا سمية ... على أن تقطعي صلتك بكل من عرفت قبلي

— « وهل عرفت أحداً قبلك ؟ أنت واهم !

— « أنت تهزأين بي يا سمية !

— « لا . لست أهزأ بك ، بل ... أنا ... أحبك

— « وأنا ... وأنا يا سمية ... بل لقد فنيت فيك

— « ثق أنني لم أقلها لأحد قبلك على كثرة من تعرف ممن ظننتهم أحبائي !

— « إذن ستكونين لي وحدي ! أليس كذلك ؟

— « سأكون لك ! وأقسم لك إنني لم أكن لأحد قبلك

— « وعلام تقسمين يا سمية ؟

— « أقسم على نفحة السماء التي غمرت قلبي حين ضغطت على يدي ليلة لقيتك ... بل أقسم على الدموع الغزيرة الغالية التي ذرفتها أنت الآن !

ودنا منها جمال ... وصافحها ، ولكنه لم يقبلها ؟ !

* * *

ونقل من القاهرة إلى أسيوط ، وانتقلت (سمية) معه ، ثم تزوجها هنالك ، ولكنه كان يعاشرها كما يعاشر الفنان دُميته ، يهواها ويتعبدها ، على عكس ما يقول الشاعر العربي ؛ وكان شديد الغيرة عليها ، وكان يغيظه منها كثرة الخطابات التي ترسلها إلى القاهرة والتي تصل منها ، وكانت هي لا تبالي أن تقع هذه الخطابات في يده فيقرؤها ، ويمزق منها ما يشاء ، ويبقي على ما يشاء ويرد إليها ما يشاء . ولكن خطابا واحدا أهاجه بما حمل إلى سمية من عبارات ليس يصدر مثلها إلا عن فؤاد العاشق ولا يستطيع أن يكتبها إلا قلم وامق ... وإن تكن التي كتبته امرأة كما يُظَن من الامضاء

— « ومن عَلِيّة هذه التي تكتب هذا الأسلوب المتهدج يا سمية ؟ »

— « الأسلوب المتهدج ؟ »

— « آي ... الأسلوب الذي يخفق بحبك ، ويتنزل كالوحي عليك ؟ »

— « جمال ! ماذا تريد أن تقول ؟ »

— « لاشيء ! ولكني أعبدك يا سمية ! أعبدك ! أسمعت ؟ »

— « بل أنت تعذبني بشكوكك !

— « فقط أريد أن أعرف من عَلِية هذه ؟ »

— « أقسم لك بدموعنا إنها فتاة ... ولكن لا تعرفها ! »

— « ..... ؟ ..... »

وذهب جمال إلى (المصاحة) وغادر سمية تجتر آلامها وحدها ؛ وكان قد أهدى اليها صورته يوم أن تقاسما على أن يكون كل منهما للآخر ، وكانت سمية تعتز بهذه الصورة أيما اعتزاز ، لأنها كانت تذكرها بالقلب الذي نبض بحبها غير مشوب بغرض دنيء ، كما كانت تذكرها بأول نبضة خفق بها قلبها بحب بريء ... فكانت تدمن النظر اليها وتبكي ...

وعاد جمال مرة من عمله مغضباً حانقاً ، لأن لئيماً من أصدقائه عرف أنه تزوج من سمية فكتب اليه خطابا بامضاء مستعار يهيجه به ، ويذكر له من تاريخ صاحبته ما يريد أن يفصم به عرى تلك الرابطة التي ربطت قلبيهما ، فتعجل جمال موعد انصرافه ، ويرجع إلى المنزل ليرى رأيه في سمية ، وليضع حدا لافتتانه بها ، وليخلص ضميره المعذب من هذا الشقاء الطويل

وكان يحمل معه مفتاحاً لكنه ، وكان كل مرة يفتح الباب دون أن يسمعه أحد ، وكان بذلك يؤلم سمية غاية الايلام ، لأنها كانت تعتقد أنه يتجسس عليها

ودخل في ميعاد مبكر لم تكن تنتظر مجيئه فيه ، وسار بخطى متئدة حتى كان عند باب المخدع ، فوجدها بين مصراعي دولابها الكبير تقلب أوراقاً ، ثم تتناول من بينها صورة فتحدق فيها نظرها ... وتلثمها وتبكي ...

وكان السافل الوغد الذي كتب اليه الخطاب الذي أهاجه قد ذكر له فيه أنه أهدى اليها صورته أكثر من مرة ، وأنها أهدت اليه صورتها ، فوقر في قلبه أنها تلثم الصورة المجرمة التي تدخرها ككنز لهذا الحيوان

وفي ثورة جنونية ، انقض جمال على سمية ، وضغط بكفيه القويتين حول عنقها ، فوقعت على البساط الوردي الفخم ، بين الموت والحياة !

ولكن ... وا أسفاه ! لقد نظر إلى الصورة التي كانت بيد زوجته فوجدها صورته التي كان أهداها اليها ليلة الموثق ، فأفاق من وسواسه ، وانحنى يقبل سمية بفم مجنون ، وشفتين مرتجفتين ، ولكنها لم ترد عليه بكلمة ... فحسبها قد قضت !

وصاح جمال بالخادمة ...

ثم هرول الى الخارج ليحضر طبيباً ...

* * *